نظريَّةُ للتديُّن في اختبارات الدين بوصفها تَجْربةً وهُويَّةً

حسام مطر *

مُقدِّمة

يواصل موضوع التَّدَيُّن الحضور بشكل وازن في الدِّراسات الأكاديميَّة والمسوحات الإحصائيَّة؛ بهدف مراقبة التحوُّلات في أنماط التَّدَيُّن واتِّجاهاته حول العالم، ولا سيَّما لدى فئات الشباب. فالتَّدَيُّن، أو عدمه، مدخل أساس في تشكيل الهُويَّة الفرديَّة والجمعيَّة، وتاليًا له تداعيات مباشرة على سُلُوك الفرد والجمهور في مختلف مجالات الحياة اليوميَّة. فالتَّدَيُّن بمحمولاته الإيمانيَّة، والقيميَّة، والأيديولوجيَّة، يصير جزءًا من منظورنا إلى العالم، في المقابل، فإنّ تجاربنا اليوميَّة، ونمط الحياة، واستهلاكنا للمنتجات المادِّيَّة والثقافيَّة؛ تعيد تشكيل نمط التَّدَيُّن الخاص بنا. وهذا ما تؤكّده الدّراسات، حيث يتأثر نمط التَّدَيُّن بالعمر، ومستوى التعليم، والدَّخل، ونوع العمل، والانتماء السِّياسيّ، والتفاعل مع التكنولوجيا، والبيئة الاجتماعيَّة.

هكذا، للتديُّن صلة وثيقة بالسِّياسة، فكلاهما يتبادل التَّأثير، والتَّفعيل، والتَّحفيز.

* أكاديميّ مُتخصِّص في العلاقات الدوليَّة، ومحاضر في الجامعة اللُّبنانيَّة، ومدير أبحاث في مجال الدّراسات الإستراتيجيَّة.

فالتَّدَيُّن لدى الجمهور العام لا ينشأ من عمليّات تفكير مُجرّدة ومحايدة فحسب؛ بل إنّ الواقع وضغوطه له التأثير الأكبر[1]. إنَّ نجاح فواعل سياسيَّة ذات هُويَّة دينيَّة في تلبية الحاجات العامَّة، والمصالح المشتركة للجمهور، مثل تحقيق التنمية والعدالة الاجتماعيَّة، أو دحر الاحتلال، أو تحقيق الاستقلال السِّياسيّ، تؤدِّي بشكلٍ تلقائيٍّ إلى تغذية نمط تديُّنيّ وانتشاره تحمله تلك الفواعل، والعكس صحيح. مثلاً يجد التقرير الأخير للباروميتر العربيّ أنّ التَّدَيُّن في لبنان، وبعكس الدول العربيَّة الَّتِي شملتها الدّراسة، شهد في دورة استطلاعات 2021ـ2022 ازديادًا لدى فئة الشباب بنسبة 13% في تعريف أنفسهم بكونهم غير مُتديّنين قياسًا على الوضع قبل ثلاث سنوات. وأحال مُعدُّو التقرير هذه المفارقة إلى كون لبنان «شهد انهيارًا تامًّا في نظامه الماليّ. ولطالما كان النِّظام الطائفيّ هو المدخل لتوازن السُّلطة بين أتباع الطوائف الدينيَّة المختلفة. مع إخفاق هذا النظام في لبنان، يُرجّح أنّ المواطنين قد لاموا المنظومة الدينيَّة برُمَّتها إلى حدٍّ ما»[2].

في ظلِّ أزمة النِّظام الدوليّ اللِّيبراليّ القائم، تعود صراعات القوى الكبرى، وتتعمّق الانقسامات الاجتماعيَّة، فتظهر مُجدّدًا الهُويَّة والثقافة في قلب منافسات القوّة. وهكذا، تحاول كل منظومة دوليَّة تجمع دولًا ومنظمات أنْ تُعزّز من تكامل هُويّتها المشتركة ومتانتها، واستهداف البِنْيَة الهُويّاتيَّة للمنظومات المُعَادية. وهكذا، يظهر أنّ الولايات المُتَّحدة في عهد إدارة جو بايدن الحالي تدمج بشكلٍ مُكثّف الأجندة الثقافيَّة (القوَّة النَّاعمة) في سياستها الخارجيَّة كما في ما يُسمّى مسألة

1- من أمثلة تلك الضغوط ما هو مرتبط بالأوبئة، الَّتِي عانت البشريَّة في السَّنوات الأخيرة من عدد منها، ولا سيَّما وباء كورونا، حيث كان لنجاح المؤسّسات الدينيَّة في التعامل مع الأوبئة، أو إخفاقها ولنتائجها على مستوى تقديم الرعاية، والمؤازرة المعنويَّة، والاحتضان الروحي تأثيرٌ كبيرٌ في انتشار بعض الأديان، أو تراجعها. انظر: حسام مطر، الدين والوباء، صحيفة الأخبار، 16 نيسان 2020. وكان من نتائج الوباء تغيُّر طبيعة المشاركة في الأنشطة الدينيَّة، في بعض الدول، كما الولايات المتحدة، حيث تراجع الحضور المباشر في دور العبادة مقابل ازدياد المشاركة الافتراضيَّة، وعن بُعْد عبر النت، والقنوات المُتَلفزة. انظر مثلًا:

Justin Nortey and Michael Rotolo, How the Pandemic Has Affected Attendance at U.S. Religious Services, Pew Research Center, March 28, 2023.

2- الباروميتر العربيّ، الشباب العربيّ يتصدَّرون عودة المنطقة إلى الدين، 27 آذار 2023: https://shorturl.at/hBOT6.

المِثْليَّة[1]، وفرضها تحت ما يُسمّى «القيم العالميَّة». وهكذا، تطمح واشنطن إلى تعزيز أنماط الحياة، والسُّلُوك، والفكر اللِّيبراليَّة الماديَّة حول العالم، في إطار جهدها لتعبئة التحالف اللِّيبراليّ الديمقراطيّ في مواجهة القوى «غير اللِّيبراليَّة» الَّتِي تُهدّد النظام الدوليّ القائم، مثل: الصين، وروسيا، وإيران. ومن هذه الزاوية، تُواصل الولايات المتَّحدة جهودها لتثبيط أشكال التَّدَيُّن الإسلاميّ الثَّوريّ/ السِّياسيّ من خلال تشجيع لبرلة النماذج الإسلاميَّة أو/وتحييدها سياسيًّا[2]. وفي المقابل، تؤكد المنظومات المُعَادِية للِّيبراليَّة المعولمة، بما في ذلك بعض الحركات اليمينيَّة المُتصاعدة في الغرب، على الهُويَّات القوميَّة، والدينيَّة، والأيديولوجيَّة، والحضاريَّة. هذه المنازلة الثقافويَّة بسياق جيو إستراتيجيّ، مضافة إلى سياسات الهُويَّة تعيد الدين والتَّدَيُّن إلى مركز المنافسات[3].

على مستوى المنطقة العربيَّة، الَّتِي تواصل التخبُّط بأزماتها، يستمرّ الدين، والفكر الدينيّ، والممارسات التَّدَيُّنيَّة في التشكيل، أو التأثير، أو التفاعل مع اتجاهات المنطقة وقضاياها، وتحوُّلاتها، وصراعاتها. وعلى عكس ما أُشِيع لسنوات عن تراجع الارتباط بالدين ولا سيَّما لدى فئات الشباب، يكشف التقرير الأخير للباروميتر العربيّ اتِّجاهًا مُغايرًا، حيث تبيّن في الدورة السابعة من الاستطلاعات (2021ـ2022) وجود تحوّل إيجابيّ في مسار التَّدَيُّن لدى الشباب (18ـ29 عامًا) الَّذِي عاد للارتفاع بعدما كان في حالة تراجع منذ الدورة الثالثة (2012ـ2014)؛ ما طرح الشكّ بفرضيَّة أنّ المنطقة تصبح أقل

1- في ظل إدارة بايدن، جرى تعيين مبعوث أميركيّ خاص؛ لتعزيز حقوق الإنسان لما يُسمّى المِثْليِّين، أو مجتمع «الميم»، واهتمَّت وزارة الخارجيَّة بقضايا، مثل: مواجهة حملات التضليل المعلوماتيّ المعادية للمِثْليِّين، وللشراكة العالميَّة لمواجهة التحرّش، والاستغلال الجندري لهم عبر الوسائط الرقميَّة. وقد سبق أن صدرت مُذكّرة رئاسيَّة لتعزيز حقوق تلك المجموعات (شباط 2021)، ثم أصدرت وزارة الخارجيَّة الأميركيَّة تقريرًا مُفصّلا (134 صفحة) لما تمّ تطبيقه من المُذكّرة خلال العام 2022م.

2- لمزيد من التفصيل انظر: حسام مطر، ما بعد القتال: حرب القوَّة النّاعمة بين أميركا وحزب الله، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، 2019م.

3- وهذا الأمر يظهر، بحسب مركز بيو للدراسات، من خلال ارتفاع عدد الدول الَّتِي تفرض قيودًا حكوميَّة عالية على الدين عام 2020 إلى 57 دولة بالمقارنة مع 40 دولة عام 2007. انظر:

Pew Research Center, Key Findings from the Global Religious Futures Project, December 21, 2022.

تديُّنًا. شملت الزيادات دولًا، مثل: تونس (+24 نقطة مئويَّة)، وليبيا (+18 نقطة مئويَّة)، والمغرب (+18 نقطة مئويَّة)، ومصر (+15 نقطة مئويَّة)، والجزائر (+11 نقطة مئويَّة). ولا تقف النتائج عند البحث حول الهُويَّة الذاتيَّة؛ إنما تتناول أيضًا الممارسة الدينيَّة. لقد طرأت زيادة في نسبة المواطنين الَّذين أفادوا بأنّهم يتفاعلون مع النُّصُوص الدينيَّة بشكل يوميّ. بلغت هذه الزيادة في شريحة الشباب 22 نقطة مئويَّة في تونس، و18 نقطة في المغرب، و13 نقطة في الجزائر، و6 نقاط في السودان، و5 نقاط في الأردن، و4 نقاط في لبنان[1].

في زحمة كل هذه الأسئلة، والتحوُّلات، يتموضع كتاب «فلسفة التَّدَيُّن... الطرق إلى الله في عالم مُتحوّل»[2] للدكتور حبيب فياض[3]، وقراءته مثل رحلة معرفيَّة، ووجدانيَّة، وإيمانيَّة شيّقة، وغنيَّة. للكتاب مميّزات عدّة لناحية موضوعه، ومنهجيّته، وأسلوبه، والفوائد المُسْتخلصة منه، فهو لا يعكس معرفة كاتبه وتخصّصه فحسب؛ بل تجربته، وخبرته الشخصيَّة، والعامّة. يظهر الكاتب في النَّصّ أكاديميًّا، ومُفكّرًا، ومواطنًا، ومؤمنًا، وإنسانًا، ومُتديّنًا، كما أنّه يبدو مُتألّمًا، قلقًا من الوضع التَّدَيُّنيّ العام، لكن ليس مُحْبطًا؛ بل حوّل الألم إلى جُرأةٍ، وحافزيَّةٍ، وطاقة، ورسالة، هذا النَّص المألوم يبدو أنّ كاتبه أراده ترياقًا. تعرض هذه الورقة للأنموذج النَّظريّ لفلسفة التَّدَيُّن، كما خلص إليها الدكتور فياض.

نظرة عامَّة في «فلسفة التَّدَيُّن»

هدف الكاتب الاشتباك مع أبرز ما يقلق المُتديّنين والمؤمنين وهو علاقة الناس بالدين لأجل دنياهم (الاستخلاف) وآخرتهم (الخلاص). ما يقلق الكاتب أنَّ أنماطًا من التَّدَيُّن السَّائد تتحوّل إلى تهديد لصورة الدين وغايته، ومشروعيّته الأرضيَّة، ولا سيَّما أنّ الاستهدافات المعاصرة للدين تحوّلت من النقاش في الفكر

1- الباروميتر العربيّ، مصدر سابق.

2- صدر مؤخرًا بـ 377 صفحة من القطع الكبير، عن دار الفارابي في بيروت، ومركز دراسات فلسفة الدين في بغداد.

3- حائز دكتوراة في الإلهيَّات والفلسفة الإسلاميَّة من جامعة طهران، وأستاذ فلسفة الدين، وفلسفة اللُّغة والتأويل، في الجامعة اللُّبنانيَّة.

والنص الديني إلى النماذج التَّدَيُّنيَّة[1]. «فاكتمال الدين بوصفه ماهيَّةً نظريَّةً لا يكون إلَّا بالتطبيق، واكتمال التَّدَيُّن بوصفه ماهيَّةً عمليَّةً لا يكتمل إلَّا بالتأمُّل البحثيّ والعقليّ». وعليه، كيف يمكن بناء علاقة بين الدين بكونه فكرًا ونصًّا ونظريَّةً، وبين التَّدَيُّن بوصفه تجربةً ومُمارسةً وسُلُوكًا؛ بحيث نحفظ قُدْسيَّة النصّ الدينيّ وتأثيره في الحياة، وأن نُطوّر الممارسة التَّدَيُّنيَّة وفق مقاصد الدين بالتكيّف مع تحولات المكان والزمان وشروطهما.

يكشف الكاتب كثافة التَّداخلات والتَّأثيرات بين الدين والتَّدَيُّن؛ فالموضوع ليس ببساطة أنّ الدين مولّد للتديُّن، أو أنّ التَّدَيُّن مُجرّد أثر. وهكذا، فصل الكاتب الدين والتَّدَيُّن، ثمّ أعاد وصلهما؛ ففي البداية ميّز بين الدين والفكر الدينيّ، والممارسة التَّدَيُّنيَّة؛ فالدين بوصفه وحْيًا مُنزّهًا، وكاملًا، وعصيًّا على نحت الزمان والمكان، فيما الفكر والممارسة تدخل عليهما المؤثِّرات البشريَّة، والتاريخيَّة، والمعرفيَّة، والسِّياسيَّة، والاجتماعيَّة، والنفسيَّة،... إلخ، فتجعلهما عرضةً للتَّبدُّل، والتغيير، والخطأ، والنَّقد، والتَّصويب، والتَّطوير.

في هذا السِّياق، فحص الكاتب أوجهًا ضروريَّة للعلاقة بين الفلسفة، وكل من العرفان، وعلم الكلام القديم والجديد[2] والفقه، وأسّس لما يسمِّيه علم كلام الإيمان، من خلال علم كلام العقائد، وعلم كلام المعرفة، وعلم كلام الأديان، فلم يعد، وفق ما يراه، علم الكلام محصورًا بالعقيدة؛ بل يجب إعادة إنتاجه على ثلاثيَّة: كلام العقائد (أصول الدين، والإلهيّات، والوجوديّات)، كلام المعرفة (العلوم الإنسانيَّة، والوضعيَّة)، كلام الأديان (الأديان السّماويَّة، والفلسفات الروحيَّة).

1- خلصت التجربة الأميركيَّة في مُمَارسة القوَّة النَّاعمة والاتِّصال الإستراتيجيّ والدبلوماسيَّة العامَّة إلى أنّ إيصال الرسالة الثقافيَّة إلى المجتمع المستهدف ينبغي أن تجري من خلال «وكيل ثقافيّ» من سنخيَّة ذلك المجتمع. ولذا، فإنَّ مشاريع استهداف الدين والتَّدَيُّن الثوريّ كثيرًا ما تكون أدواتها دينيَّة تحت عناوين التنوير، والتعدُّديَّة، والحوار، ونبذ العنف، والوطنيَّة. ومن باب تجسيد الفكرة، فقد هدم السلطان العثماني محمد الفاتح أسوار القسطنطينيَّة العاتية بمدافع ضخمة مصنوعة من معادن أجراس الكنائس الَّتِي سيطر عليها في البلقان.

2- يحاجج الدكتور فياض أنه بإمكان علم الكلام الجديد أن يؤدّي دورًا على صعيدي: الوجود، والمعارف من خلال الوحي مُضاهيًا لما تُؤدّيه الفلسفة في هذين الصَّعيدين من خلال العقل، بنَحْوٍ يُمهّد لجعل هذا العلم مرجعيَّةً وحيانيَّةً لمعرفة الله، والإنسان، والعالم، على غرار ما تُشكّله الفلسفة من مرجعيَّة عقليَّة في معرفة الله، والإنسان، والعالم.

كذلك، علم الفقه يجب ألّا يبقى مُقتصرًا على الشأن الفرديّ؛ بل لا بُدّ من إعادة إنتاجه على ثلاثيَّة: فقه الأفراد (العبادات، والمعاملات)، فقه الأمّة (الدولة، الوطن، الجماعات، الأحزاب، المجتمعات) فقه الحقوق (التشريعات القضائيَّة، والحدود). وصولًا إلى مسألة القيم الدينيَّة، حيث لا يصحُّ أنْ تقف حدودها عند الشأن الأخلاقيّ؛ بل يُصَارُ إلى إعادة إنتاجها أيضًا من خلال ثُلاثيَّة: علم الأخلاق (الفعل)، علم الجمال (الفن)، علم المنطق (التفكير).

كما ميّز الكاتب بين ثُنائيَّات مُتباينة من التَّدَيُّن: التَّدَيُّن الواحدي/ الأحدي، التَّدَيُّن الاعتقاديّ/ الإيمانيّ، التَّدَيُّن الإيجابيّ/ السّلبيّ، التَّدَيُّن التقليديّ/التجريبيّ، التَّدَيُّن الحركيّ/الجامد، التَّدَيُّن الأداتيّ/الغائيّ، التَّدَيُّن الأفقيّ/ الصعوديّ، التَّدَيُّن الفقهيّ/القيميّ، التَّدَيُّن بالجوهر/الأعراض، التَّدَيُّن الفرديّ/الجماعيّ، التَّدَيُّن البسيط/ المُعقّد، التَّدَيُّن المبدئيّ/ المصلحيّ، التَّدَيُّن السّلفيّ/الليبراليّ، وصولًا إلى التَّدَيُّن التكفيريّ مع ما يُمثّله من خطورة على التَّدَيُّن عمومًا.

بنى «فياض» أُنموذجًا نظريًّا للتديُّن بتحديد المفاهيم وفرزها، ثُمّ ربطها بخطوط شديدة الاتِّساق، فتغدو الأفكار المُعقّدة توضح بعضها بعضًا، وتدلّ على بعضها. وهكذا، تظهر بصمات «حبيب» في النَّصّ دليلًا يُهوّن عليك الطريق. تتراصف الأفكار المئة الأساسيَّة للكتاب بشكلٍ محبوكٍ ودقيقٍ؛ لتصل في ختامه إلى دليل إرشاديّ لفلسفة التَّدَيُّن، خاتمة أراد لها فياض أن تكون فاتحة.

في المُحصِّلة، جمع النَّصّ بين الشجاعة والحذر؛ الأولى: يفرضها موضوع الكتاب الشّائك، والأخرى: تفرضه طبيعة الموضوع ودقَّته؛ لأنَّ الكاتب لا يبغي الاستفزاز، أو النَّقد السَّلبيّ؛ بل يريد فتح النّقاش وتطويره وتنشطيه. النصُّ مكتوب بتواضع وحرص، وقدرة عالية على التعامل مع التفاصيل والمنعرجات، فخبرة صاحب الكتاب مَكّنَتْه من خوض نقاشٍ ذاتيٍّ، ومُساجلةٍ داخليَّةٍ عند كل جملة كتبها؛ فكان قادرًا على توقّع الحجج المضادَّة، والشُّبُهات الَّتِي قد ترمى عن حق، أو عن تعكير، يُضافُ إلى ذلك، اطِّلاعه الواسع على ما قيل حول الفكرة، وما الجديد الَّذِي يريد تقديمه.

أطروحة فلسفة التَّدَيُّن

إنّ النقاشات في حدود المُقدّس، وتجديد الخطاب الدينيّ، وإدخال المناهج الحديثة في قراءة النصّ الدينيّ، والسُّنّة النَّبَويَّة ليست جديدة، إلّا أنّ الكتاب ينقل

الجهد إلى ضفّة التَّدَيُّن بوصفه مُمَارسةً تستلزم التنظير. يتقرب الكتاب من المنهج المقاصدي في التعامل مع الدين، ويؤيّدُ المقاربات الدَّاعية إلى إحياء مسائل؛ الفلسفة، والأخلاق، والعدالة في مقاربات التشريعات الدينيَّة، كما أنّه يؤكّد، في المقابل، أهمِّيَّة مرجعيَّة النَّص وضوابطه. فالوحي مرجعيَّة فكريَّة في الموضوعات الثلاث. ولذا، ينبغي «البحث إبستمولوجيًّا عن طرق للتفكير فيه وفهمه، وهو من مصادر المعرفة، وهناك قيمة في المعرفة المُتحقّقة منه». فالدين مقصده الإنسان، وفي الإنسان بُعْدان يظهران في النَّص: الجسد، والطين، والمادَّة، والشهوات، والغريزة، والجوارح في مقابل الروح، والنّفخة الإلهيَّة، والفطرة، والجوانح، وهما يلتقيان في عالم الرّحم، فتنشأ النفس، فإنْ غلبت الفطرة كانت السّعادة، وإن غلبت الغريزة حلّ الشَّقَاء.

تجمع فلسفة التَّدَيُّن بين البحث النَّظريّ في التَّدَيُّن، والبحث التطبيقي في الدين، وغايتها الاتّحاد بين النَّظَريَّة والممارسة. فكيف يكون التَّدَيُّن عقلانيًّا؟ وكيف يكون مُمْكنًا؟ أي كيف نُحوّل الإيمان الدينيّ، والقناعات العقديَّة إلى التزام ونمط حياة يظهر في الفرد، والمجتمع، والتاريخ؟ الفعل التَّدَيُّني هو موضوع فلسفة التَّدَيُّن، والفعل هذا يشمل: العمل، والفكر، والقول. وهكذا، يصبح الفعل من كينونة الفاعل، فيصبح لدينا ذات مُتديّنة، وهُويَّة التَّدَيُّن.

تدور الأطروحة حول ثُلاثيَّة تتناسل على مدار النصّ؛ وهي أنَّ الدين منظومة تضمّ: عقائد، وتشريعات، وقيم، تصنّف وفق حق/باطل، حلال/حرام، قبيح/حسن. وتتمظهر تديُّنيًّا من خلال العبادة/المعرفة/الأخلاق، في العلاقة مع الله والكون/العالم/الإنسان، وفق ثُلاثيَّة الفهم/التصديق/العمل؛ أي التعرّف/التقرّب/التمثّل. فيتحقّق بالنتيجة الاستخلاف الدنيويّ والثواب الأُخرويّ؛ فتتشكّل هُويَّة الفاعل بكونه شخصًا مؤمنًا ذي خبرة تدينيَّة خاصّة، وبكونه فردًا من الجماعة المُتديّنة، وهذا كلّه هو التجربة التَّدَيُّنيَّة.

فالعلاقة بين الدين والتَّدَيُّن هي علاقة بين ماذا يقول الوحي (نصل إليه بإعادة القراءة، والفهم، والتأويل)، ولماذا يقول الوحي (ونحقّقه بالتجربة التَّدَيُّنيَّة من خلال العمل بثُلاثيَّة: العقل، والعاطفة، والمصلحة). فسؤال: «ماذا يقول الوحي؟» تُحاكي الإجابة عنه الفهم الثابت للوحي. أمّا سؤال: «لماذا يقول الوحي؟»، فتُحاكي الإجابة عنه الفهم المُتحوّل للوحي؛ والجمْع بين السؤالين في سياق فهْم الوحي

ينعكس على نَحْو تلقّي الإيمان بأبعاده الثلاثة: المعرفة، التصديق، العمل؛ ذلك أنّ وضع الوحي، وما يتعلّق به من تديُّنٍ إزاء سؤال «لماذا» إلى جانب «ماذا»؛ من شأنه أن يضعنا إزاء البحث عن ماهيّات الإيمان وحدوده، إلى جانب علله، وغاياته بأبعادها العمليَّة، والنَّظَريَّة. إذ إنّ البحث عن الماهيّات، والعلل، والغايات هو بالتحديد ما يُميّز الفلسفة في مختلفِ المجالات عامةً، والتَّدَيُّن خاصّةً.

بناءً عليه، يرتكز النَّصّ على مرجعيَّة ثُنائيَّة تفاعليَّة من الإنسان تجاه الله؛ أي بين الثَّابت والمُتغيّر، بين المطلق والنِّسبيّ، بين الرسالة والملتزم، بين الفاعل الوحيانيّ والقابل البشريّ، بين الكمال والتمام، بين الكلام واللُّغة، بين النَّظَريَّة والواقع، بين الفكر والفعل، بين الفهم والمُمَارسة، بين الدائم والمؤقّت،... إلخ.

هكذا، يخلص الكاتب إلى ضرورة إيجاد ثلاثة تحوُّلات على صعيد فهْم الإيمان من خلال ربْطه بالعمل الصالح، والحياة، والحب، بدل وضْعه في ثُنائيَّة مُتَضادَّة مع الكفر، والآخرة، والكره، وذلك ربطًا بالدعوة لممارسة الإيمان بالثبوت لا بالتَّضاد. وهذا الفهم للإيمان يظهر في ثلاثة مجالات تديُّنيَّة ذات تعلُّقات تطبيقيَّة، هي: القضايا الدينيَّة (الجمع بين التصديق والتقرير؛ أي بين النَّظريّ والتطبيقيّ، فيتحقّق التصديق الإيماني)؛ الأفعال التَّدَيُّنيَّة (التعبُّد الخاص والسُّلوك العام؛ أي شعائر وفضائل، فتتحقّق الوظيفة الإيمانيَّة) والتجربة التَّدَيُّنيَّة (مبادئ ومصالح، فتتحقّق الغاية الإيمانيَّة).

أفكار مفتاحيّة في الدين

1. لكلّ مفهوم دينيٍّ، مهما بدا مُتَجرّدًا، أثر وغاية دنيويَّة. فالدين يريد لنا معرفة الحق والالتزام بالحقيقة. كلّ ذرَّة من الوحي لها بعد وظيفيّ غائيّ، يقول الكتاب.
2. إذا كان كلّ ما حصل دينيًّا في التاريخ هو دينيّ، فليس كلّ ما حصل تاريخيًّا في الدين هو دينيّ أيضًا. فمكوّنات الفكر الدينيّ ومتعلّقاته المعرفيَّة والعمليَّة، بحاجة إلى إعادة إنتاج على قاعدة تأصيل المُقدّس العابر للتاريخ، وتجديد التاريخيّ، بما يتلاءم مع الحاضر حال كونه بحاجة إلى تجديد.
3. الفعل الإلهيّ في الخلق أمضى من القول الإلهيّ في الوحي. فمن أعرض عن آيات الله الوحيانيَّة لا يسعه الإعراض عن آيات الله الأنفسيَّة والكونيَّة؛

ومن يصمّ أذنيه مُمْتنعًا عن سماع الوحي، لا يستطيع أن يوصد أبواب عقله ووجدانه عن حضور آيات الله الأنفسيَّة في نفسه، والآفاقيَّة في الآفاق من حوله.

4. الوصول إلى الله يمكن أن يتحقَّق من غير طريق الدين، وذلك لقوَّة الحضور الإلهيّ في الأنفس والوجود (الفعل الإلهيّ في الخلق)، ولكن الدين (الوحي) هو الطريق الأمثل إلى الله.
5. قيمة الاعتراف بوجود الله تعالى نابعة من ضرورة وجوده بالذات، وممّا يترتّب على القول بعدم وجوده من محالات، فوجود الواجب تعالى قائم على الاستواء بين محاذير النفي، وموجبات الإثبات؛ فبمقدار ما يشكّل وجوده ضرورة، يشكّلُ عدم وجوده محذورًا؛ وبمقدار ما يشكّل ثبوته رحمة ونعمة، يشكّل نفيه شقاء ونقمة؛ وبمقدار ما يبعث الإيمان به على الكمال، يبعث نكرانه على النقصان.
6. القرآن لغته بشريَّة وكلامه إلهيّ؛ لأنّ الله تعالى خاطب الناس بلغتهم ولكن بكلامه. ولا يعني ذلك أنّ اللُّغة بالضرورة خارج ماهيَّة نصّ القرآن؛ بل يعني أنّ اللُّغة في القرآن هي جهة ما به الاشتراك بين الخطاب ومُتلقّيه، فيما الكلام القرآنيّ هو جهة ما به الامتياز بينهما بوصف الكلام من مختصّات المصدر صاحب الخطاب.
7. للدين مقاصد ثابتة، وله أدوات لتحقيقها كشف عنها النصّ نفسه، بعضها ثابت، وبعضها الآخر مُتَبدّل، بما يمنح الحياة للنص الوحياني الكامل والنهائي في كل زمان ومكان، وحين تتغير المدارك والحاجات.
8. غايات الدين مجموعة من المقاصد الجزئيَّة والكليَّة المرتبطة بهدفيَّة الخلق، ووجود الإنسان على طريق الاستخلاف، وبعض الأدوات لتحقيقها كشفها الدين، وبعضها تُرك للتجربة البشريَّة، وتطور أحوالها، فلا ينبغي طغيان الأداة على الغاية.
9. إنّ الدين لم يأتِ ليعرّفنا إلى أمورٍ خارج ذواتنا، بمقدار ما أراد لفت أنظارنا إلى الطّاقات الكامنة فيها؛ لحضِّنا على فعل الخير النَّاشئ من الفطرة، ولتحذيرنا من الشَّوائبَ الَّتي تعتريها، وتدفعنا إلى الشَّرّ المُتَأتّي من الغريزة.
10. الله هو المُقدَّس الوحيد بالأصالة، ومصدر القدسيَّة، وما عدا ذلك فقدسيّته

عارضة في طول العلاقة بالله؛ وهي قدسيَّة بالتبع، وأداة للتقرُّب، وما هو غير مُقدَّس ليس مُدنّسًا بالضرورة؛ بل يمكن أن يكون طاهرًا. القداسة هي طُهْر دائم، وهي لازمة لله، أو ما ينبئ الله بقدسيَّته، وهي ليست للفعل التَّدَيُّنيّ، أو الفاعل التَّدَيُّني.

11. إذا كان معنى الدين هو «التعاليم الوَحْيانيَّة»، فإنّ معنى المعنى للدين هو التَّدَيُّن؛ أي هو الالتزام بتلك التعاليم، وتطبيقاتها، واستخداماتها. فمعنى الدين ذو دلالةٍ دينيَّة، ويتعلّق بماهيَّته الوحيانيَّة، أمّا معنى المعنى للدين فيتماهى مع معنى التَّدَيُّن، ويتعلّق بكونه تجريبيًّا.

في التَّدَيُّن، فكرٌ وممارسةٌ

1. الدين ليس مُجرّد تعقّل؛ بل هو عقل نعقل به. وليس التَّدَيُّن مجرّد فعل نقوم به؛ بل هو فعل نكونه. فالفعل التَّدَيُّنيّ، يتخطّى أن يكون عرضًا ذاتيًّا إلى أن يكون جوهرًا تتّصف به الذات، فيخرج والحال هذه من الفعليَّة إلى الهُويَّة، ويتعدّى طور الفاعليَّة إلى الكينونة، لتصبح الذات ذاتًا ثبت لها مبدأ الاشتقاق على نحو الأصالة، لا الاعتبار[1].
2. للتديُّن ثلاثة مُحدّدات، إضافة إلى المُقدَّس هناك الواقع والقبليات. ولذا، التَّدَيُّن ليس مجرَّد حصيلة للمقدَّس.
3. تخضع الهُويَّة التَّدَيُّنيَّة في تشكّلها الفكريّ لعنصرين أساسيّين؛ الأوّل: داخل ـ دينيّ وهو ما جاء به الدين موجبًا وسالبًا، والآخر: خارج ـ دينيّ يتعلّق بمواقف اللّادينيّين وآرائهم من الدين بمعزل عن كونها سلبيَّة أم إيجابيَّة.
4. يجب بناء الواقع الإسلاميّ بالنظر إلى احتياجاته، وخصوصيّاته أولًا،وبعد ذلك قياسًا إلى الضِّديَّة مع الآخر. ولذا، فإنّ الأولويَّة للعمل على بناء التجربة الحضاريَّة الإسلاميَّة بدل الاستغراق في نقْد التجارب، والأفكار المعارضة. فالذات المُتديّنة تقوم من خلال الثبوت أكثر من النفي؛ أي الاعتناق ثمَّ رفض ما يخالف العقائد، والتشريعات، والقيم.

1- يشير فياض إلى أنّ المُتديّن فاعل ومنفعل في علاقته بالدين؛ فاعل لناحية الانشغال المعرفيّ والذهنيّ فيه، ومنفعل لناحية الخضوع لتعاليمه. كما أنّ التَّدَيُّن ليس مُجرَّد فعل، أو عارض؛ بل جوهر، وهُويَّة، وكينونة.

5. توظيف المعتقدات هو لأجل الاقتداء والارتقاء (التَّدَيُّن الإيجابيّ) وليس للتّنابذ والتّخاصم مع الآخر (التَّدَيُّن السّلبيّ)، فقوّتها في جعلها منهجًا للحياة من خلال الفعل والممارسة. ولذا، من الأولى ربْطها بالإيمان والتوحيد بما يجعلها تجمع وتوحّد، بدل الاستغراق في سياقاتها التاريخيَّة مع ما تحمله من صراعات[1].
6. الفعل التَّدَيُّني له حكمًا أثر مباشر، أو غير مباشر، إيجابيّ، أو سلبيّ، على الآخرين بما يتجاوز الفرد الَّذِي قام به؛ أي أنه مُتَعدٍّ وليس لازما.
7. التَّدَيُّن بالاعتقاد دون الإيمان يفضي إلى الانغلاق، والتشدُّد والأدلجة الصِّراعيَّة، فالإيمان أسمى وأقدر على إنشاء الروابط الإنسانيَّة، وحفظ مقاصد الدين وغاياته.
8. التَّدَيُّن علاقة عباديَّة بالله من خلال العمل والناس، والتجربة التَّدَيُّنيَّة مدخلها الفرد، والهُويَّة التَّدَيُّنيَّة مدخلها الجماعة. وفعاليَّة التَّدَيُّن تصل إلى أقصاها من خلال التداين بما يُحوّله إلى ظاهرة عامّة، وأنا تدينيَّة عامّة من خلال حضوره في التفاعل مع الآخرين، بما فيهم غير المُتديِّنين.
9. الإنسان المتديُّن في علاقة مع الغيب والحياة. مع الغيب من خلال العبادة فيتحصّل الارتباط ويحلّ الفيض في القلب، أمّا مع الحياة فيتجلّى ذلك في المعاملة الأخلاقيَّة مع الناس والواقع.
10. للتعاليم الفقهيَّة والأخلاقيَّة المصدر الإلهيّ ذاته ومستوى الإلزام ذاته. ولذا، التعاليم الأخلاقيَّة ليست إرشاديَّة استحسانيَّة، وينبغي التعامل معها كما الأحكام الفقهيَّة. وعليه، فالاختبار الأصعب ليس في معرفة كنه الدين؛ بل الاختبار هو التَّدَيُّن الَّذِي جوهره الأخلاق. وما يُميّز أخلاق التَّدَيُّن عن الأخلاق الوضعيَّة أنّ الأولى لها بُعْد غائي بالتعلُّق بالله، وبالتمثُّل به، وهو الَّذِي نشترك معه في السنخيَّة من خلال النفخ بالروح.
11. ارتبط الموقف القرآنيّ السّلبيّ من الكفر الاعتقادي دائمًا بكونه يتصاحب مع كفر أخلاقيّ. فالكفر بشموليّته السَّلبيَّة لا يقتصر على رفض الله

1- في هذا السِّياق، يرى فياض أنَّ جوهر الإمامة لا يكمن في الاختلاف عليها؛ بل في الاقتداء بها؛ وليس في نبْذ من لا يؤمن بها؛ بل في جذْبه إليها، كونها وجهةً تدفع قبل أيّ شيء إلى العمل بتعاليمها، وليس إلى التّخَاصم فيها.

والديـن مـن الناحيـة الذهنيَّـة والقلبيَّـة؛ بـل هنـاك مُترتّبـات أخلاقيَّـة يتفـرّع منهـا مُترتّبـات أخـرى (سياسـيَّة، واجتماعيَّـة، وتربويَّـة، ونفسـيَّة،...) مرتبطـة جميعًـا فـي انطبـاق هـذا المفهـوم علـى مصاديقـه الجزئيَّـة مـن الكافريـن... إنّ الموقـف الحـادّ الَّـذِي اتّخـذه القـرآن مـن الكفّـار لـم يكـن مقتصـرًا علـى الجنبـة العقديَّـة المرتبطـة بالإيمـان؛ بـل كان ناجمًـا أيضًـا عـن افتقـاد مَـنْ وصفهـم القـرآن بالكافريـن؛ القيـمَ الأخلاقيَّـة.

12. لا يصحّ الخلـط بيـن الكمـال والتمـام في إطـار الحديـث عـن الديـن والتَّدَيُّن. لـذا، شـأن الديـن الكمـال وشـأن التَّدَيُّـن التمـام. فكماليَّـة الديـن تعنـي انطواءه علـى مـا يحتـاج إليـه الإنسـان مـن تعاليـم عقديَّـة، وشـرعيَّة، وقيميَّـة، كفيلـة بتحقُّـق الهدايـة فـي حالـة الجمـع بيـن الإيمـان والالتـزام. أمّـا التماميَّـة فهـي الجهوزيَّـة والاسـتعداد للامتثـال لتلـك التعاليـم، وتحويـل الإيمـان إلى ممارسـة فعليَّـة، وإتاحـة كلّ شـروط التَّدَيُّـن فـي مقـام الحيـاة. لـذا، فالكمـال الدينـيّ شـأن إلهـيّ وحيانـيّ مرتبـط بالشـارع المُقـدّس، والتمـام التَّدَيُّنـيّ شـأن بشـريّ نسـبيّ مُتعلّـق بشـكلٍ أسـاس بتوفّـر النيَّـة مـع الإرادة فـي الفعـل.

13. أخيـرًا، تهـدف فلسـفة التَّدَيُّـن إلـى دراسـة العلاقـة بيـن الله والإنسـان، علـى قاعـدة أنّ الديـن إلهـيّ وجهتـه الإنسـان، وأنّ التَّدَيُّـن إنسـانيّ وجهتـه الله؛ فكون الديـن مـن الله يتجلّـى ـ بكونـه تعاليـمَ ـ فـي ثلاثيَّـة العقائـد/ التشـريعات/ القيـم، فيمـا يترتّـب علـى التَّدَيُّـن ـ بكونـه وظيفـةً إنسـانيَّةً ـ الالتـزام بتلـك الثُّلاثيَّـة فـي مقـام العمـل؛ إنّمـا يكـون بهـدف وصـول الإنسـان إلـى: التعـرُّف إلـى الله، وهـو مـا تتكفَّـل بـه العقائـد، والتقـرُّب مـن الله، وهـو مـا تتكفّـل بـه تشـريعات الفقـه، والأحـكام التعبُّديَّـة، وصـولًا إلـى التمثُّـل بالله، فـي إطـار القيـم الأخلاقيَّـة، حيـث يفضـي ذلـك كلّـه إلـى تحقيـق مقـام الاسـتخلاف.

خاتمة

تنجـذب النّـاس عمومًـا، وتنفـر مـن التجـارب أكثـر بكثيـر مـن الأفـكار، وفـي عصـر التّقانـة، والمعلومـات يصبـح الأمـر أكثـر وضوحًـا. ويواجـه الديـن ومُؤسّسـاته، وحركاتـه والمؤمنـون بـه ضغوطًـا متزايـدة مـن التجـارب الماديَّـة المعاصـرة الَّتِي تمكّنـت مـن الهيمنـة علـى مجـالات واسـعة مـن الحيـاة اليوميَّـة. ولـذا، التحـدِّي الأكبـر ليـس

في نقد الليبراليَّة الماديَّة، أو التبرُّؤ من التجارب الدينيَّة المُتَطرِّفة؛ وهي بالمقارنة أسهل؛ إذ إنّها أقلّ كلفة، ولكن الاختبار في بلورة نماذج، ونظريات فكريَّة إسلاميَّة، وتسييلها في بناء تجارب دينيَّة متينة[1]. وتطويرها من خلال التطبيق والاشتباك مع المعضلات، والمصاعب، والأزمات؛ وهو ما يستدعي في واقع الحال صراعًا سياسيًّا وفكريًّا داخل البيئات المُتَديّنة، وهو ما يخشاه ويتفاداه كثر من المثقّفين والمفكّرين. إنّ التجربة التَّدَيُّنيَّة هي فكر وممارسة، فهي لن تكون ناجزة فكريًّا في المختبر؛ بل حين تواجه موضوعات حيويَّة، مثل: التحرُّر، والحريَّة، والعدالة الاجتماعيَّة، والمساواة، والمواطنة، والتكنولوجيا، وثورة المعلومات، والبيئة، والهُويَّة.

كلّ نصّ مؤهّل لأن تتعدّد قراءاته وممارساته، فكيف إن كان نصًّا دينيًّا مُقدّسًا، بكل ما يُوَفّره من مشروعيَّةٍ، وقدرةٍ، وسلطة. وكلَّما طالت المسافة عن زمن النزول تزداد فوق كلماته شبهات التاريخ، ومصالح السُّلطات، وتحوُّلات المعرفة، وتبدُّلات أحوال المعاش، والعمران. تلك المسافة بين التَّدَيُّن والدين ضروريَّة؛ لحماية الدين، وحفظ الإيمان بالله، وتفعيل التَّدَيُّن؛ فلا يعود ظهور نمط فاشل من التَّدَيُّن فرصة لنشر الإلحاد، أو استهداف العقائد الدينيَّة. ولكن تلك المسافة من الخطير أن تغدو شرخًا؛ بل لا بُدَّ أن تظهر فوقها جسور مفاهيميَّة ومعرفيَّة متينة، مثل: مقاصد الدين، والفلسفة، والأخلاق. وهكذا، يصبح للتديُّن والدين فرصة الإسهام في النُّهوض الحضاريّ، وفي التَّدَيُّن مع سائر المؤمنين، وفي التواصل مع غيرهم ممَّن ينادون بمذاهب إنسانيَّة. إنّ الانفصال عن النّصّ الوحياني موجب للضّياع، وحلول مرجعيات أخرى؛ إذ لا بُدّ من نصّ، ومسْح التمايز بين الدين والفكر الدينيّ، والممارسة الدينيَّة موجب للجمود والاستبداد بستار القَدَاسَة الإلهيَّة.

إنّ الإقرار بالمدخلات البشريَّة للتديُّن يتيح حدودًا ضروريَّة لنقد التجارب الدينيَّة وتطويرها، وعقلنة النِّزاعات ذات الرمزيَّة الدينيَّة، أو المرجعيَّة الدينيَّة، كما أنّه يجعل من ظهور أنماط مختلفة من التَّدَيُّن أمرًا معقولًا وتباياتها أمرًا مقبولًا. وذلك الظهور لأنماط من التَّدَيُّن يصبح فرصةً للحركات الدينيَّة لتطوير تجاربها من خلال المنافسة، واستقراء التجارب، والتعلّم المُتَبادل، فالتجارب الدينيَّة القادرة

1- المتانة هنا تختلف عن الصَّلابة، فكلّ جسم صلب سيظهر في النّهاية قوّة قادرة على تحطيمه، أمَّا المتانة فهي خاصِّيَّة تُتِيح لصاحبها ليس مجرَّد الصّمود أمام التحدِّي، والخطر، والصدمة؛ بل التكيُّف، والتطوُّر، والنُّمُوّ.

على الاستجابة لحاجات الناس ومصالحهم المادِّيَّة والمعنويَّة ستكون الرّدّ الأفعل على تجارب التطرُّف الدينيّ، أو التجارب الدينيَّة المُسْتَتْبعة لقوى الهيمنة.

إنَّ أطروحة «فلسفة التَّدَيُّن» موضع النَّظَر قدّمت أساسًا متينًا لتعميق البحث والنقاش في تجديد الخطاب الدينيّ، وتأصيل المُمَارسات التَّدَيُّنيَّة الخاصّة والعامّة. ولا شكّ في أنّ ما طرحه الدكتور فيّاض حول العلاقة بين «الدين والتَّدَيُّن» سيُثير النّقاش، وربما الاعتراض في أوساط نخب علميَّة وبحثيَّة، وفي مؤسَّسات دينيَّة، كما أنَّ مثل هذه الأطروحة قد تفرض قيودًا واضحة على قدرة السُّلطة السِّياسيَّة على التَّوظيف الاستغلاليّ للدين، وتجعل ممارستها أكثر انكشافًا أمام النَّقْد والدَّحْض. إنّ استغلال الدين يرتكز على محو المسافة اعتباطًا بين الدين والتَّدَيُّن؛ بحيث يتلبّسُ كلّ فكر دينيّ، ومُمَارسة تديُّنيَّة بقَدَاسة الدين؛ ما يحبط إمكان النِّقاش، أو الاعتراض، أو يجعل ذلك مثل حرب على الدين، أو حربًا دينيَّة. يُضَافُ إلى ذلك أنّ اشتداد حملات الثّقافة اللِّيبراليَّة على الدين والتَّدَيُّن تفرض ضغوطًا تُشجِّع على التمترس والاحتماء، بدل الفعاليَّة المُبَادرة حتَّى يخلو لها المجال العام أكثر.

يظهر في السَّنوات الأخيرة عودة الزّخم للأبعاد الثقافيَّة، والحضاريَّة للصِّراعات السِّياسيَّة، والدوليَّة ربطًا بأزمة النِّظام اللِّيبراليّ الَّذِي يمر بمرحلة تعبئة شاملة لمواجهة صعود ما يعدُّه نماذج غير ليبراليَّة دينيَّة وقوميَّة. وهكذا، يواجه الدين موجات مُتَتَاليَة من التشكيك والاختبار، تَتَأتّى من طبيعة العالم المعاصر الَّذِي يئِنُّ تحت سطوة النّزعات المادِّيَّة، وتسارُع تحوُّلاته بما تُولّده من صدمات اجتماعيَّةٍ، وثقافيَّةٍ مُتلاحقة، وكذلك من الاستهدافات المُمَنْهجة له لغايات إستراتيجيَّة.

يقع جيل الشباب المسلم في قلب تلك السِّجالات، وهم مركز ثقلها؛ لدورهم في صناعة التَّحوُّلات، وتحريك التوازنات المجتمعيَّة والسِّياسيَّة. كتاب الدكتور حبيب فياض بجرأة موضوعه، وانضباط منهجيَّته الأكاديميَّة، ولغته الأخّاذة، ورشاقة المعالجة، ودقَّة المصطلحات، والتَّكامُل بين التعقيد الفلسفيّ، والتبسيط الواقعيّ، وصولًا إلى بناء أُنموذج مفاهيميٍّ لفلسفة التَّدَيُّن، يُخوّله باستحقاق؛ لأن يتصدَّر نقاشات الدين والتَّدَيُّنِ، في أوساط الشباب، وأن يكون دليلهم إلى الإيمان، أو الحوار الإيجابيّ مع الدين، كما أنّه يرسي قواعد معياريَّة لحضور الدين في المجال العام، بما في ذلك المجال السِّياسيّ؛ وهي قواعد من شأنها أنْ تُسهّل النّقاش في انضباط السُّلُوك السِّياسيّ، والموقف السِّياسيّ مع النص الدينيّ، ومقاصده، وغاياته.